حول مقالات
ذو القرنين . بين الخبر القرآنى والواقع التاريخى

تعليق للأستاذ أحمد حسين شرف الدين على مقال
« ذو القرنين بين الخبر القرآني والواقع التاريخى »
المنشور بالعدد الثالث والرابع للسنة الثالثة من مجلة الدارة

لقد أجاد وأفاد صاحب المقال الاستاذ عبدالله ابراهيم العسكر في استعراضه الكامل الشامل لأقوال المفسرين والمؤرخين عن شخصية ذو القرنين : من هو ، وأين عاش ، وفي أي زمن ، والتي عددها الى اثني عشر قولا .

وكلها ـ كما قال الاستاذ العسكر ـ لو تأملناها لوجدناها الى الاسرائيليات أقرب وألصق ... ومنها ما صدر من أصحابها كآراء شخصية وترجيح واستخراج المعاني بتغيير الحروف عن أماكنها الأصلية ، وبمعنى آخر تدوير المعنى على أساس أصل الكلمة واشتقاقاتها الصرفي ، وهذا كما ترى لا يمت للطريقة العلمية بصلة ، بل هو الى التخرصات أقرب ، وخاصة أولئك الذين أعطوا لذي القرنين أسماء عربية اسلامية ... ألخ .

ثم أورد آراء فريق آخر من مؤرخين ومفسرين كابن هشام والرازي وابن الأثير والمسعودي والمراغي وجرجي زيدان وغيرهم ممن يرى أن ذا القرنين هو الاسكندر المقدوني الكبير ، وما ذهب اليه العالم الهندي شبلي النعمان من أنه دارا الكبير ملك فارس بالقرن الخامس قبل الميلاد ، وما رجحه

العالم أبو الكلام أزاد من أنه كورش الأكبر الأخميني ملك فارس بالقرن السادس قبل الميلاد ••• الخ •

وبعد أن سرد عدة أقوال واستنتاجات أخرى رجح الاستاذ العسكر أن ذا القرنين هو الملك الصعب بن الحارث من ملوك حمير الذي روى عنه أن توغل في الفتح في افريقيا حتى بلغ أقصاها وعبر منها الى جزيرة الأندلس وبنى فيها المنارات في بحر الظلمات ••• ألخ مستندا الى ما ذهب اليه الاستاذ معروف الدواليبي في كتابه : « دراسات تاريخية عن أصل العرب ص ٢٤ » والذي استند هو الآخر الى أبو الريحان البيرووني ص (٤١) دون ذكر كتاب البيروني في هذا الصدد ولعله كتاب الآثار الباقية عبر القرون الخالية » ، وذلك الترجيح كان استنادا من جهة أبي الريحان لشيء واحد لا غير وهو أن (ذو) لا تاتي الا في أسماء ملوك حمير مثل : « ذو نواس » و « ذو المنار » و « ذو الشناتر » و « ذو الأدغار » وغيرها •

ورايي ان كلمة (ذو) في حد ذاتها لا تصح دليلا على أن الملك الصعب بن الحارث من ملوك حمير هو ذو القرنين المذكور في سورة الكهف بالقرآن الكريم ، خصوصا وأنه حتى الآن لم يعثر في النقوش السبئية والحميرية على أي ملك سبئي اسمه حرفا (ذو) ولا من اسمه الصعب بن الحارث ولا غير ذلك مما جاء في المؤرخات العربية كـ « ذو نواس » و « ذو الشناتر » و « ذو الأدغار » بل كل ما ورد في النقوش من الأسماء هو : شمر يهرعش ، معدكرب، نشاكرب وأمثالها •

وفي اعتقادي انه عندما نورد الآيات الكريمة المتعلقة بذي القرنين ثم نقرؤها في تمعن وتمهل ثم نقارنها بأحداث التاريخ المحلي والعالمي نستطيع ان نخرج بنتيجة مقبولة ومعقولة •

قال الله تعالى « ويسئلونك عن ذي القرنين قل ساتلو عليكم منه ذكرا، انا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سببا ، فاتبع سببا ، حتى اذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوما قلنا يا ذا القرنين اما أن تعذب واما ان تتخذ فيهم حسنا ، قال اما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد الى ربه فيعذبه عذابا نكرا ، وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاءا الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا ، ثم اتبع سببا ، حتى اذا بلغ مطلع الشمس وجدها

تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها سترا ، كذلك وقد أحطنا بما لديه خبرا، ثم أتبع سببا ، حتى اذا بلغ بين السدين وجد من دونهما قوما لا يكادون يفقهون قولا ، قالوا يا ذا القرنين ان يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ، قال ما مكني فيه ربي خير فاعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردما ، آتوني زبر الحديد حتى اذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا حتى اذا جعله نارا قال آتوني أفرغ عليه قطرا ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا ، قال هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا » ٠

يستدل من هذه الآية الكريمة أن هذا السلطان أو الملك المسمى بذي القرنين أو ما في معناهما اللغوي في ذلك العصر قد مكنه الله في الارض تمكينا عظيما ، ومنحه من القوة ما تمكن بها من الوصول في فتوحاته الى أقصى الارض ووسطها وأدناها ، وان منهاجه كان محاربة الفساد ونشر الخير والعدل بين العباد ، وكان للظالم عنده عقابه الدنيوي ثم الأخروي عندما يعود الى ربه فيعذبه عذابا نكرا أي لا يشبه عذاب البشر (هدانا الله الى صوابه ونجانا من عذابه وعقابه) أما الصالح فله عنده الجزاء الطيب والتكريم البالغ٠

حتى اذا بلغ بين السدين ، وهو مكان يعلمه الله تعالى ، وكان من ورائه يأجوج ومأجوج ، وهم أهل شر وفساد وطغيان ، طلب منه أهل تلك الناحية أن يبني دونهم سدا منيعا ، ولم يتوان ذو القرنين عن ذلك لأن مبدأه نشر العدل وقمع الفساد ، ولم يقبل منهم ما بذلوه من عون مادي بل أجابهم قائلا : ما مكني فيه ربي خير ، ولكن أعينوني بسواعدكم ، وقام وقام بردمه بقطع الصخر والحديد المذاب ، وبعد أن أتم عمله الجبار قال (هذا رحمة من ربي فاذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربي حقا) ٠

والواضح من هذه الآيات أن ذا القرنين كان موحدا مؤمنا بالله واليوم الآخر ، وهي صفة أخرى الى جانب صفة القوة والتمكين في الارض ٠ وبالرجوع الى مصادر التاريخ المدون ، وسواء التاريخ الفارسي أو اليوناني أو العربي ، نجد أن ذلك التاريخ لم يات لنا باي ملك أو سلطان كانت له هاتان الصفتان ، وبعبارة أوضح أنه لا كورش الأكبر ملك فارس ولا الاسكندر المقدوني ملك مقدونيا ولا الصعب بن الحارث الحميري ملك حمير يمكن أن تنطبق عليه صفتا ذي القرنين المشار اليهما وذلك لأمور سنوضحها فيما يلي :

أولا : ان كورش الأكبر ملك فارس الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد كان على دين زرادشت الذي ظهر في ايران في منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، ولم يكن موحدا بل كان من عبدة النار ، كما أنه لم يمكنه في الارض تمكينا كبيرا فقد عجز عن غزو مصر ولم يسيطر عليها الا ابنه قمبيز بعد موته ، كما عجز عن احتلال مناطق أخرى كافريقيا والجزيرة العربية .

ثانيا : ان الاسكندر المقدوني الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد وبعبارة أدق من سنة ٣٥٦ الى سنة ٣٢٣ قبل الميلاد والذي سيطر على فارس ومصر قد فشل في اقتحام الصين وما والاها شرقا وغربا كما فشل في احتلال الجزيرة العربية وافريقيا ، وقد توفي وعمره ثلاثة وثلاثون عاما دون أن يكون له نية بفتح العالم بأسره ، ومع ذلك فلم يكن مؤمنا موحدا بل كان من عبدة الكواكب التي اشتهر الاغريق القدامى بعبادتها كأبوللو وهوميروس وزيوس وكلها ترمز في الأصل الى كواكب معينة كالشمس والقمر والزهرة .

ثالثا : أن الصعب بن الحارث ملك حمير لم يكن له وجود في أية قائمة من قوائم البحث العلمي المرتكز على النقوش والذي كاد أن يحصر ملوك سبأ وحمير حصرا ، كما لم تات النقوش باسمه ولا بمثل اسمه كما أسلفنا ، على انه ان صح وجود ملك حميري بهذا الاسم فان دولة حمير واقصد بها الدولة السبئية الثالثة والرابعة والتي بدأت سنة ٥٠ قبل الميلاد وانتهت سنة ٥٢٤ للميلاد كانت دولة ضعيفة متقوقعة في جنوب الجزيرة العربية مهددة باحتلال الأحباش الذين كانوا بمثابة الوكيل الشرعي للرومان والذين ما فتئوا يغزون البلاد من أيام الشرح يخصب (٣٥ ـ ١٥ ق م) ثم احتلوها للمرة الاخيرة سنة ٥٢٤ للميلاد ودمروا مدنها وحضارتها . أما في شمال الجزيرة فلم يكن لهذه الدولة نفوذ مستمر أو مستقر ، وأحيانا كانت ترتبط بأحلاف مع الملوك الأزديين في الفاو ثم مع حلفائهم في المنطقة من مذحج وقحطان ومعد ، وأخيرا مع ملوك كندة الذين تمركزوا بادىء ذي بدء في الفاو كما ذكر ذلك علامة التاريخ والآثار الدكتور عبد الرحمن الطيب الانصاري في مقاله بنفس العدد المذكور ثم بدومة الجندل أخيرا عملا بما جاء من أخبارهم مع مناذرة الحيرة قبل الاسلام ثم بعد الاسلام كما في قصة اكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل المشهورة .

والملك الحميري الوحيد الذي جاءت النقوش بذكر قوته وغزواته العسكرية هوشمر يرعش ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات (٢٦٢ ـ ٣٠٠ م) فقد أفصح نقشنا المعروف برقم (٤٢) بانه قام بعدة حملات عسكرية داخل اليمن وخارجه وصل في احداها الى أطراف فارس ٠

ثم الملك يوسف اسأر يثار ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت وغيات وابنه ملك ينوف صاحبا نقشي بئر حمأ بمنطقة الفاو بالمملكة العربية السعودية والمؤرخين بسنة ٥١٨ م ٠

وقد غزا كل منهما نجران وهدم قليسها (أي كنيستها) ويغلب في ظني (والله أعلم) أن يوسف اسأر هذا هو صاحب قصة الاخدوذ التي جاء ذكرها في القرآن الكريم والمعروف عند المؤرخين بذي نواس ٠

وفي اعتقادي انه لو فرض وجود ملك حميري في هذه الفترات من بعد ميلاد المسيح عليه السلام وكان له من القوة ما يمكنه من التغلغل في الشمال فان قوى كبيرة وعديدة كانت ستقف أمامه سدا منيعا ، فهنالك قوى الامبراطورية البارثية ومن بعدها الساسانية على الفرات ، وهنالك السلوقيون في سوريا والمكابيون في فلسطين والانباط في البتراء وزنبويا في تدمر ، وخلف هؤلاء جميعا ما عدا الساسانيين الرومان الذين ضربوا حول الجزيرة العربية حصارا بريا وبحريا رهيبا استمر حتى سنة ٦٣٤ للميلاد الموافقة لسنة ١٣ للهجرة عندما دحرتهم قوات الاسلام في معركة اجنادين ثم في معركة اليرموك الحاسمة سنة ٦٣٦ للميلاد (سنة ١٤ للهجرة) بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه ٠ وتلا ذلك معركة القادسية سنة ٦٣٧ م (١٦ هـ) بالنسبة للفرس انتصر فيها جيش الاسلام بقيادة سعد بن ابي وقاص واستولى على المدائن وغيرها ٠

ان أعظم ملك مؤمن موحد طبقت سلطته أرجاء الارض ممن جاء بذكره القرآن الكريم والتاريخ المدون هو النبي سليمان بن داود عليهما السلام (القرن العاشر قبل الميلاد) وقد جاء ذكره في القرآن الكريم أكثر من خمس عشرة مرة ، ولست أعني أنه المقصود بذي القرنين ، الا انه ليس من المستبعد أن يكون ذو القرنين هو أحد خلفائه (أي النبي سليمان عليه السلام)

من الأسباط ممن أتبعوا دينه ونسجوا على منواله ، والا فهو واحد من ملوك الأمم القديمة من سومريين وعيلاميين ٠

وأخيرا أقول أنه لولا أن المشركين قد طلبوا من الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وبتوجيه من يهود أن يخبرهم عن رجل بلغ مطلع الشمس ومغربها فانزل الله تعالى هذه الآية الكريمة الباهرة ، أقول انه لولا ذلك لما عرفتا شيئا عن ذي القرنين وقوته العظيمة وقصته العجيبة ، ولكان في عداد عوالم الله الكثيرة التي حجب عنا أمرها وكتم عنا سرها ٠

هذا وأود أن أنهي حديثي بكلمة خالدة قالها السيد قطب رحمه الله في ذات الموضوع حيث قال : « ومن البديهي أنه لا يجوز محاكمة القرآن الكريم الى التاريخ لسببين واضحين : أولهما أن التاريخ مولود حديث العهد فاتته أحداث لا تحصى من تاريخ البشرية لم يعلم عنها شيئا ، والقرآن الكريم يروي بعض هذه الأحداث التي ليس لدى التاريخ علم عنها ٠ ثانيا ، ان التاريخ وان وعى بعض هذه الأحداث هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب أعمال جميع البشر من القصور والخطا والتحريف ، ونحن نشهد في زماننا هذا ـ الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص ـ ان الخبر الواحد والحادث الواحد يروي على أوجه شتى ، وينظر اليه من زوايا مختلفة ، ويفسر تفسيرات متناقضة ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ » ٠

« فمجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص ، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر ، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر ان القرآن هو القول الفصل ٠٠٠ » ٠

« لقد سأل سائلون عن ذي القرنين ، سألوا الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فاوحى اليه الله بما هو وارد هنا من سيرته ، وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن في هذه السيرة ، فنحن لا نملك التوسع فيها بغير علم ، وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة ، ولكنها لا تعتمد على يقين ، وينبغي أن تؤخذ بحذر لما فيها من اسرائيليات وأساطير » انتهى كلام الامام سيد قطب رحمه الله مقتبسا من كتابه (في ظلال القرآن) الجزء السادس عشر صحيفة ٢٢٩٠ ـ ٢٢٩١ مطبعة دار الشروق بيروت ١٣٩٦ ه ٠